Eisele
Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

الحق والإيمان في كلام ابن تيمية

٦٦١هـ - ٧٢٨هـ

الدكتور
ندیم قارو

الحكمة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م

الحكمة
للطباعة والنشر

دمشق - سورية - بناء سادكوب - الحلبوني

سجل تجاري ٢٤٩٦٨

هاتف ٢٢١٢٩٦٧ - ٢٢٣٠٧٣٨

ص.ب ٧٨٧ - دمشق

ص.ب ٥٧٢٠/١١٣ بيروت

مقدمة

لقد تميز العصر الذي عاشه ابن تيمية بالانحلال والضعف، وقد حكم الدولة الإسلامية آنذاك المماليك، وهم غرباء عن لغتها ضعفاء في فهم دينها، مما أتاح للنزعات غير الإسلامية أن تصول وتجول وتجد لها منفذاً للتوغل في عقول هذه الأمة، لذا كثرت الطرق الإسلامية، وانتشرت الطرق الصوفية، وإذا كان حكام الدولة بعيدين عن فهم الدين أمكن أن يميلوا مع الأهواء والنزعات التي لاتتفق وجوهر العقيدة حيث لايكون لهم موقف ثابت أو رأي أصيل، بل كثيراً ماكان يغلب عليهم الجهل، ويميلون إلى تصديق الخرافات، وإذا كان الناس على دين ملوكهم فقد تجلت في تلك الفترة الأفكار الدخيلة والأخلاق والعادات اللاإسلامية، وتأثرت آراء علماء الكلام بنظريات الفلاسفة، واستعجمت العقول، فتقاصرت هممها عن الاجتهاد، ومالت إلى التقليد، وتناحرت الطرق بعضها ببعض وتحت منحى خطير في تكفير بعضها البعض، عوضاً عن سلوك الدليل والبرهان واعتماد القرآن والسنة.

أما الوضع السياسي حينذاك كان خطراً حيث أطبق عليهم الأعداء من كل جانب، فالصليبيون غزوهم مراراً من البحر محدثين الخراب والقتل والنهب، وكذلك التتار الذين شنوا الغارات على دمشق محاولين الاستيلاء عليها، كل ذلك بسبب إعراض المسلمين عن تعليم الدين.

وكذلك الوضع الاجتماعي كان ممزقاً، لذا فقد كان مجتمعاً نشأ فيه المسلمون بالوراثة فتلقوا من آبائهم العادات والتقاليد دون أن يعملوا فكراً أو يحركوا عقلاً، وسيطر على المجتمع حب المظاهر وكثرة الاتباع ومتع الحياة

من نساء وأموال.

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة فصول:

- تحدثت في الفصل الأول عن حياة الإمام ابن تيمية والعصر الذي عاش فيه من الناحيتين الإجتماعية والسياسية.

- أما في الفصل الثاني تكلمت عن نشوء الفرق الإسلامية، وإحلال دعوة الرسول الكريم.

- بينما تحدثت في الفصل الثالث عن مفهوم العلم كونه نور الحق ومعياره في الإسلام.

وأخيراً أفردت الفصل الرابع للتحدث عن النزعة الكلامية حول قضية المعاد، واختلاف علماء الكلام حول اعتماد العقل أو النقل.

المؤلف

دمشق في:

١٩٩٤/٨/٢٥م

الفصل الأول
تمهيد حول الاطار الحياتي والإجتماعي والسياسي لابن تيمية:

ولد الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية بحران في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ، وخلال سنة ٦٦٧ قدم مع والديه وإخوته إلى دمشق هرباً من غزو التتار، وعندما شب عن الطوق درس مع والده وعلى شيوخ دمشق وتلقى عليهم العلوم العربية والدينية من تفسير وحديث وفقه، وكان يتمتع بذكاء خارق وحافظة مدهشة ففاق الأقران وهو ابن بضع عشره سنة وكانت حافظته حديث الاوساط في دمشق، حتى روي أن شيخاًقدم من حلب ليختبر حافظته فأملى عليه ثلاثة عشر حديثاً وبعد أن قرأها دفعها إليه وأسمعها عليه عن ظهر قلب، ثم أملى عليه عدة أسانيد انتخبها فقرأها ثم اسمعه إياها مثل الأول فدهش الشيخ وقال إن عاش ليكونن له شأنٌ كبير وله عظمة تحتل مكانة يحسد عليها.

فمن خلال بعض شهادات الذين عاصروه، نرى مثلاً الحافظ الذهبي عنه يتصرف وكان معاصراً للشيخ: «إنه نشأ في تصون وعكاف وتأله وتعبد وكان يحضرالمحافل والمدارس في صغره ويناظر ويفحم الكبار، ناقش وله من العمر أقل من تسع عشرة سنة وشرع في ذلك الوقت في الجمع والتأليف وعندما توفى والده سنة ٦٨١ أخذ مكانه في تدريس المذهب الحنبلي وبعد صيته عندما أصبح رئيساً لهذا المذهب وله من العمر إحدى وعشرون سنة وأخذ في تفسير الكتاب والسنة فكان يورد

المجلس لا يتعلثم وكان يؤدي الدرس بتؤدة وصوت جهوري وقول فصيح حيث نشأ في حجور العلماء راشفاً كؤوس الفهم لا يلوي إلى غير المطالعة والأخذ بمعالي الأمور خصوصاً علمي الكتاب والسنة لا يشبع من العلم ولا يمل من البحث، ذاكراً الله في كل أمر راجعاً إليه في سائر الأحوال واقفاً عند حدوده، ورعاً عابداً عفيفاً عابداً ناسكاً صواماً قواماً، ولم يزل في ازدياد من العلوم وبث العلم من الاجتهاد في سبيل الخير حتى انتهت إليه الامامة في العلم والعمل سنة ٢٢٠هـ.

ومن هذا لابد لنا من ان نستعرض الزمن والعصر الذي عاش فيه الشيخ، حيث أننا نجد أن الدولة الاسلامية قد دب فيها الانحلال والضعف وحكمها المماليك وهم غرباء عن لغتها ضعفاء في فهم دينها، مما اتاح للنزعات غير الاسلامية أن تصول وتجول وتجدلها منفذاً للتوغل في عقول هذه الأمة، لذا فقد كثرت الطرق الاسلامية وانتشرت الطرق الصوفية، وإذا كان حكام الدولة بعيدين عن فهم الدين أمكن أن يميلوا مع الأهواء والنزعات التي لا تتفق وجوهر العقيدة حيث لا يكون لهم موقف ثابت أو رأي أصيل، بل كثيراً ما كان يغلب عليهم الجهل ويميلون إلى تصديق الخرافات، وإذا كان الناس على دين ملوكهم فقد تجلت في تلك الفترة الأفكار الدخيلة والاخلاق والعادات اللاإسلامية و تأثرت آراء علماء الكلام بنظريات الفلاسفة واستعجمت العقول فتقاصرت هممها عن الاجتهاد ومالت إلى التقليد، وتناحرت الطرق بعضها ببعض وتحت منحى خطير في تكفير بعضها البعض، عوضاً عن سلوك الدليل والبرهان، واعتماد القرآن والسنة.

إلا أن عامة هذا العصر فقد كانوا يقفون موقف المتلقي لذا فقد فشت فيهم البدع والخرافات حتى فسدت العقائد وكان للنزعات الصوفية باع كبير في جذب العوام إليها وابعادها عن جوهر الدين واستغلال عقولهم

الساذجة في التلبيس عليهم واصطناع الكرامات والتعلق بالولايات وتعظيم قبورهم.

ولكن الوضع السياسي حينذاك كان خطراً حيث أطبق عليهم الاعداء من كل جانب، فالصليبيون غزوهم مراراً من البحر واستولوا على الكثير من مدن الساحل محدثين الخراب والقتل والنهب، والتتار أقاموا في قلب البلاد الاسلامية يشنون الغارات على دمشق وغيرها محاولين الاستيلاء عليها، وبعض المتصوفين انتشروا في الساحل عيوناً للصليبيين كما انتشروا في الداخل عيوناً للتتار وغيرهم ممن لهم طمع في الدولة الاسلامية بعد أن ضعفت وهانت وأصبحت غثاء كغثاء السيل، كل ذلك بسبب إعراضها عن تعاليم دينها.

وكذلك الوضع الاجتماعي كان ممزقاً، لذا فقد كان مجتمعاً نشأ فيه المسلمون بالوراثة فتلقوا من آبائهم ومن الشيوخ عندهم من التقاليد والعادات والخرافات دون أن يعملوا فكراً أو يحركوا عقلاً. وسيطر على المجتمع حب المظاهر وكثرة الاتباع ومتع الحياة من نساء وأموال ومتاع، كما تدنت فيه الحركة العلمية فاقتصرت على حفظ المتون عن العلوم وحفظ القرآن والحديث للبركة يتخذون من آيات الله تمائم وأحرازاً، قد اغلقوا على أنفسهم باب النظر والاجتهاد ومن حاول أن يخرج عن هذا الالتزام إلى ساحة الاجتهاد كما فعل ابن تيمية. فلقد كان هذا المجتمع تغشاه ظلمات كثيرة متكاشفة: ظلمات دخيلة من الفلسفة الهندية والفارسية واليونانية وظلمات التقليد الأعمى وظلمات من بعض المتصوفين وزاد الأمر سوءاً استبداد الحكام وتماديهم في الظلم والفساد وهم في ذلك لا يخشون الناس لذلتهم ولا يخشون الله لأنهم بعيدون عنه.

الفصل الثاني
ظهور الفرق الاسلامية واحلال دعوة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام.

والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الامكان ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الامكان﴿ ولكل درجات مما علموا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾[1] وأكثر المتكلمين (أي علماء الكلام وهو العلم الذي أوجده المسلمون يبحث في الجانب الالهي من حيث ذات الله وصفاته وأفعاله) يردون باطلاً بباطل، وبدعة ببدعة، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً. وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة بدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع.

بعض أفكار المعتزلة:

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج، فإن المعتزلة تُقِّر بخلافة الخلفاء الأربعة، وكلهم يقولون أبا بكر وعمر وعثمان، وكذلك المعروف عنهم أنهم يقولون علياً ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر، ولكن حكمي عن بعض متقدميهم أنه قال: فسّق يوم الجمل إحدى الطائفتين (يقصد جماعة سيدنا علي وجماعة الزبير حيث دار

(١) الأحقاف ١٩.

القتال بينهم في معركة الجمل) ولا أعلم عينها، وقالوا إنه قال: لو شهد علي والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا لعينه، ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان، وهذا القول شاذ فيهم، والذي عليه عامتهم تعظيم علي. ومن المشهور عندهم (أي عند المعتزلة) ذم معاوية وأبي موسى وعمرو بن العاص لأجل علي، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة (هؤلاء الثلاثة قادوا معركة الجمل ضد علي) فإنهم يقولون إن هؤلاء تابعوا من قتاله (أي من قتال سيدنا علي) وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ويعظمون الذنوب (أي يجدونها عظيمة فلا يرتكبونها) فهم يتحرون الصدق كالخوارج، لا يختلقون الكذب كالرافضة ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الأسلام كالخوارج، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض.

أصول المعتزلة الخمسة:

وهم قصدهم اثبات توحيد الله ورحمته وصدقه وطاعته، وأصولهم الخمسة عن هذه الصفات الخمس لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمسة، فجعلوا من التوحيد نفي الصفات، وانكار الرؤية (أي أنهم أنكروا رؤية الله يوم القيامة) والقول بأن القرآن مخلوق، فوافقوا في ذلك الجهمية، وجعلوا من العدل أنه (أي الله) لا يشاء ما يكون ويكون ما لا يشاء، وأنه لم يخلق أفعال العباد، فنفوا قدرته ومشيئته وخلقه لإثبات العدل، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة، وكذلك هم والخوارج قالوا بإنفاذ الوعيد ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب إذا كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام، فمن لم يقل بذلك لزم كذبه، وغلطوا في فهم الوعيد. وكذلك الأمر